كرسي الانتظار

هناء كرم

غرف الانتظار في عيادات الأطباء هي أماكن محشوة بالقلق والانفعالات، فمهما ساعدت أفكار المهندسين المهتمين بالديكور ومهما حاول الاخصائيون الاجتماعيون بخلق جو يبعث على الهدوء والاطمئنان، فأنت نادراً ما تجلس على تلك الكراسي وأنت مطمئن البال.
ما يزيد الأمر سوءاً أنك ولو كنت على موعد مع الطبيب وأتيت في الوقت المناسب فلا بد من الانتظار الذي يؤجج القلق.

جلستُ على إحدى هذه الكراسي والأفكار القلقة تتراودني والاختلاجات المختلفة تتقاذفني الى القريب والبعيد..
ها أنا أقف على بعد دقائق من معرفة أخبار قد تغير مجرى حياتي، وربما تخبرني أني أحمل مرضاً فتاكاً سيودي بحياتي عاجلاً أو عاجلاً جداً.
تراني كيف سأخرج من هذا الباب؟ ماذا سأعرف عندما أدخل وراء هذا الباب؟؟
هل أخطأت عندما جئت وحيدة، هل سأحتاج الى من يقويني ويسندني عند خروجي، هل سأنهار؟

أحسني قوية حتى الآن،
منذ أن لاحظت تلك الكتلة في صدري وبدأت أراقبها لم أحس بالضعف أبداً، لا أنكر أنني توهمت قليلاً في البداية إلا أن اشغالي الكثيرة أخذتني من نفسي ونسيتها حتى انتبهت الأسبوع الماضي أنها تكبر وأنني يجب ألا أهملها، فقد قرأت كثيراً أن الاكتشاف المبكر لسرطان الثدي يساعد في علاجه، وأن الكتل المشابهة للكتلة التي أحسست بها قد لا تكون سرطانية، إنما اهمالها هو خطأ فادح، لذا طلبت الموعد السريع وها أنا اليوم هنا.

هل الكتلة من النوع الخبيث أم السليم؟ هل يمكن أن تكون مجرد كيس دهني كما حدث مع احدى صديقاتي؟ أم أنها علامة من علامات انتشار سيءٍ جداً وقد أهملته؟ أهملته نعم ولكن هل أهملته بخاطري؟ انشغالي بعملي وبمن حولي وبأحبائي هو سبب الاهمال .
هل هذا عذر مقبول، أو كافٍ أو مقنع؟ بالتأكيد لا، فلن يرحمني أحد لو علم بذلك. ربما لهذا السبب لم أقبل أن أصطحب أحداً معي، نعم لهذا السبب، لم أرد أن أخبر صديقتي لأنها لطالما قالت لي: انتبهي لنفسك، نعم هم جميعاً بحاجة اليك ولكنك بحاجة الى نفسك لتقومي بخدمتهم وتقدمي لهم كل ما يلزم. دعيهم يساعدونك، زوجك الذي أقعده حادث السيارة لفترة طويلة وصرت مضطرة لخدمته، دعيه يتأقلم أكثر مع وضعه الجديد، لن تستطيعي الاستمرار بما تفعلين حتى يتحسن. أنت تنسين نفسك

وستقعين يوماً بشكل أو بآخر،- كيف أجرؤ أن أقول لها رافقيني الى الطبيب فقد أهملت تورماً في صدري.
زوجي المصاب باكتئاب بسبب حالته الصحية، كيف أخبره بما أهملت في نفسي بسبب انشغالي به، سيزيده الأمر اكتئاباً ويؤخر شفاءه.

يجب أن أبتعد عن هذه الأفكار وأنظر حولي علَّ ديكور المكان يساعدني على انتشال نفسي من أفكارها. أنظر الى هذه اللوحات الكبيرة المعلقة على الحائط، ألوانها الهادئة تدعو للراحة، الا أنني حولت نظري عنها وكأنني أعاقب نفسي، أو أستصعب الراحة.

كل الجدران متشابهة في غرف الانتظار وكل الكراسي متشابهة، كرهتها يوم اضطررت الجلوس طويلاً عليها بانتظار خبر عن زوجي ونتيجة الحادث الذي تعرض له، كرهتها يوم أدخلوه للعملية الأولى ويوم أدخلوه للعملية الثانية، نسيت كم كان الجلوس على هذه الكراسي ممتعاً يوم كنت بانتظار تأكيد خبر حملي الأول والثاني، يوم كانت مشاعري وأفراحي تسبقني اليها ليحدد لي الطبيب موعد ولادتي.
الكراسي في عيادات أطباء الأطفال مختلفة لا تدعوك للكره لأنك تكون مشغولاً بطفلك ومشكلته ومرضه وبكائه الذي تعرف أنها كلها أمور عادية، لا غنى عنها ومقدور عليها.

لأتخيل نفسي جالسة على هذا الكرسي لأمر مفرح ربما هذا يساعدني، انتظار ولادة احدى زوجات ابنائي مثلاً، هل سأتمكن من الوصول الى هناك؟ هل سأعيش لأحيا هذه الفكرة أم سيقضي المرض علي؟ وأعود للفكرة ذاتها.

يتصارع في نفسي شعوران قويان الأول وهو أن النتيجة لن تكون سيئة والكتلة هي مجرد ترسبات من الحليب تكتلت كما حدث بعد ولادتي الأخيرة، لكن بما أن هذا حدث منذ زمن بعيد جداً يأتي الشعور الثاني ليحتل تفكيري وهو أن الكتلة هي من ذلك المرض اللعين وسيقتضي استئصال ثدي أو ربما ثدييَّ ، وربما سأتبع ما نسمع من معالجات كيميائية وما يتبعها من أعراض جانبية كثيرة هي من صميم أنوثة المرأة ولذتها.
أنوثة ولذة ؟ نهداي عنوان أنوثتي؟
كيف سأبدو بعد استئصالهما؟ كيف سأتحمل؟ زوجي كيف سيتحمل؟
يقولون أن نتائج العلاج في هذه الأيام ناجحة بدرجة كبيرة ولا تنتهي بالموت.
لكن هل يكفي ألا يكون المرض مميتاً جسدياً ليكون المريض بخير، وماذا عن المرض الفكري والحسي والعاطفي ، اليس هذا ما حدث مع زوجي، عندما اعتقد أن الحادث سيشل حركته السفلية الى الأبد، وابتهج مبدئياً عندما بدأ يتأكد أن المعالجة الفيزيائية ستعيد كل العضلات المصابة الى العمل بنسبة أكثر مما توقع، وسيعود يوماً الى طبيعته، وأن كل ما عليه هو الصبر والمثابرة والتمرين.
هل سأمر بعده بالمعاناة نفسها؟

يجب أن أفعل شيئاً يبعد عني أفكاري، حتى يحين دوري.
ترجلت وذهبت الى الموظفة أسألها عن موعد دخولي واستكمال أوراقي ثم رحت أعبث بالمجلات أحاول أن أجد واحدة تشدني لقراءتها.
ولم أتأخر في الدخول.

دخلت وأغلقت الباب خلفي، تزاحمت أفكاري وخِلتُ المسافة من الباب الى الكرسي المواجه للطبيب أمتاراً لا تنتهي، ماذا سيقول لي؟

طلب مني أن أشرح له التفاصيل وطلب مني الدخول الى غرفة الفحص.
بدأ بفحصي وانتهى وأنا كمن لا ذاكرة له ولا تفكير.
قال لي: هل في تاريخ عائلتك من أصابه المرض؟
قلت : لا
وراح يشرح لي كيف أنه لا يستطيع الجزم بالأمر قبل أن أقوم بالفحوصات المختلفة وأن ورماً كهذا قد يعني كل شيء وقد لا يعني شيئاً، وبشكلٍ روتيني كتب كلمات على ورقتين وطلب مني العودة الى الموظفة التي سترتب معي كل شيء وبعدها نتكلم.
خرجت كما دخلت، وليس كما توقعت فقد زاد كلامه من حيرتي وقلقي.

سألتني الموظفة إن كنت أرغب باجراء الفحوصات اليوم أم في يوم آخر، وبسرعة أجبتها الآن، الآن إن كان بالإمكان، دعتني لأتبعها الى عيادة أخرى في هذا المبنى الكبير الذي لا أرى فيه إلا جدراناً بيضاء. كنت فقط أنظر الى خطاها وأتبعها ولا شيء آخر حولي.

دخلنا غرفة انتظار أخرى فيها كراسي مماثلة كثيرة، وطلبت مني الجلوس والانتظار حتى أسمعهم يدعونني باسمي، وبدأت رحلة الانتظار الممل المؤلم مجدداً.

حرارة أفكاري تتصاعد وبرودة أحاسيسي تشتد، ليتني أخبرت أمي أو أخي، لكن ماذا سيفعلان، يقلقان؟ وبعد، ربما للاشيء.لاشيء، أعجبتني الفكرة، ليتني أستطيع التمسك بهذا الاحتمال، لا شيء . القلق سيزيد من قلق أمي البعيدة، والقلق الزائد يزيد مرضها لا غير، وأخي البعيد معها لن يقربه قلقه ولن يزيل عني قلقي ولو قليلاً.

تساءلت هل كان يجب أن أخبر زوجي؟ وأجبت نفسي كلا كلا بالطبع لا، فهو لا يحتمل أي جرعة اضافية من القلق، ولكن ألن يحس أنه بعيد عني اذا لم أشركه في محنتي، كيف سيتقبل الخبر فيما بعد ان كان خبراً سيئاً؟ ربما كان يجب أن أشركه في قلقي ليحس بشركتنا التي كانت دوماً قوتنا.
ربما هي مجرد كتلة دهنية نزيلها بسرعة وننساها، فلماذا لا أخبره؟
آه ما أقسى الانتظار..

لو كان بقربي أحد أتحدث اليه، لو كان بامكاني رؤية الوجوه التي أنظر إليها، بالتأكيد بينها وجوه فرحة لوجودها هنا فربما تنتقل الابتسامة إلي كالعدوى، لو كان بامكاني مشاهدة الصفحات التي أقلبها في المجلات المتكدسة على الطاولات لابتعد فكري عما يرعبني من الموضوع برمته.
لا أنظر ولا أرى إلا وجوهاً متشابهة بلا تعابير ولا معالم، ولا أرى من الصفحات سوى خطوطاً سوداء تقودني الى اللانهاية.
نادى صوتٌ اسمي فتنبهت ووقفت آملة أن أترك خلفي على الكرسي كل الأوهام والأفكار ومشيت نحو الباب.

دخلت، ومجدداً أحسست الخطوات القليلة دهراً، واذا بها غرفة انتظار أخرى لكنها صغيرة وليس فيها إلا كرسيين. هل هذا أفضل ؟ لم أعرف بما أجيب نفسي، لكن الصوت لم يدعوني للجلوس بل للدخول الى غرفة أخرى لتغيير ملابسي وارتداء الثوب الخاص بالتصوير الضوئي.

- مرحباً سيدتي، كيف حالك؟ ألم تتذكريني؟ أم أن الشارب الذي ربيته غير ملامحي كثيراً، رأيتك قبل قليل في البهو الكبير تنظرين إلي وكأنك لم تتذكريني، أما عندما لم تعرفيني عن قرب قلت لا بد لي أن أسلم عليك وأذكرك بنفسي.
- أهلاً أهلاً(تلعثمت الكلمات فيما بين لساني وشفتيّ، ولم أعد أعرف بما أجيب،) أحسست بخجل كبير.

وأنقذتني الممرضة بحثي على تغيير ملابسي.

في تلك الغرفة الصغيرة أحسستُ الأفكار تنحشر في مساحة أصغر حاملة كماً أكبر من القلق يكاد يحشر أنفاسي، فقد اقترب المصير.
لبست الرداء بسرعة وكأنه سينقذني من القلق وخرجت لتطلب مني الجلوس على الكرسي بانتظار دوري التي قالت أنه لن يطول.
فعلاً لم يطل، ودخلت غرفة التصوير.
صمت طبيب التصوير وهو يقوم بعمله سمح لأفكاري بالعودة لكنها اصطدمت بالشاب الذي قابلته للتو، كيف أنساه، كيف أنسى يوم أحضرناه الى هذه المستشفى في حالة اسعاف، يومها خفت عليه جداً وتعاطفت مع كونه يعيش وحيداً بعيداً عن اسرته ليبني مستقبله، وأحسستُني بجانبه أخت كبرى أو حتى أمٌ صغرى تسأل عن ولدها المريض. زرته مراراً وسألت عنه أكثر وأخبرت أصدقاءه وحثثتهم على زيارته حتى تعافى، تراه يذكر تلك الأيام؟
في الأشهر التالية لمرضه كانت تحيته الصباحية الدافئة في المكتب تغني يومي وتعطيه نكهة أخوية يحتاجها كل انسان بعيد عن أخيه. وعندما ترك العمل تمنيت له كل التوفيق لأنني علمت أنه ذاهب الى مركز أعلى، لكني علمت أنني سأشتاق الى تلك التحية الصباحية الدافئة والاحساس بالإمتنان الذي كان يشعرني به كلما التقينا. تراه يذكر؟
فرحت عندما سمعت أنه تزوج وصارت له رفيقة في غربته تعتني به وتنتبه لصحته.

تنبهت لنفسي وقد انتهيت من الفحص ولبست ثيابي وعدت الى غرفة الانتظار.

لم أرد الجلوس على الكرسي ذاته فربما أفكاري السوداء لا زالت هناك، لاحظت أن عيناي راحتا تبحثان عن هادي، لماذا أبحث عنه؟ لأطمئن عنه أم لأطمئن عن نفسي؟
فرحي برؤيته أكد لي أنني كنت أحتاج صحبة أحدهم في هذا الوقت، لماذا لم أدعُ صديقتي الحميمة، لماذا لم أنتظر أحد أولادي الذين يدرسون في الخارج؟ أنا لم أخبرهم أو على الأصح لم أفكر بإخبارهم. لو كانت لي ابنة ربما كنت سأخبرها ألا يقولون أن البنت هي سر أمها ، لطالما سألت الله لماذا لم يرزقني بابنة تكون لي صديقة ولكني اليوم ربما سأشكره لأنني لم أرزق بابنة ترث عني سرطان الثدي، لكن ربما ليس لدي أي شيء، أدور وأدور بأفكاري لأعود الى الفكرة الملعونة ذاتها.

- مرحباً مجدداً سيدتي،
- أهلاً أهلاً هادي.

- أراك تنتظرين، هل تسمحين لي أن أحثهم على احضار الصور والتقارير فأنا أعرف الجميع هنا.
- لا، لابأس لا تتعب نفسك لكن طمئني عنك كيف حالك وحال عائلتك سمعت أنك تزوجت، هذا ان كان لديك بعض الوقت.
- للحقيقة لقد انتهى دوامي واعتقدت أنه من واجبي خدمتك طالما أنك هنا فأنت لم تقصري معي يوماً.
- لا تقل هذا ، تعال واجلس بجانبي وأخبرني،
- أنا أعمل في الشركة المسؤولة عن جميع الأجهزة الالكترونية في المستشفى لذا أقضي فيها أياماً كثيرة. صدقيني لطالما حدثت زوجتي عنك واتفقنا على زيارتك لكن صعوبة حملها الذي حصل مباشرة بعد عودتنا من شهر العسل لم يفسح لنا المجال باقامة الحفلة التي وعدت جميع الأصدقاء بها ولا بزيارة أحد وكنت أقضي كل أوقاتي خارج العمل بجانبها حتى ولدت الشهر الماضي وهي الآن بخير مع ابنتنا الحلوة.
- جيد، جيد، ألف مبروك ليحفظها الله لك، سأزوركم للمباركة بالتأكيد.
- صدقيني أننا نعتبرك صديقة وأخت في بلاد الغربة، أرجوك اقبلي دعوتي.
- سآتي بدون دعوة لأتعرف على زوجتك وابنتك.
وتابعنا الحديث عن العمل والناس الذين نعرفهم ومضى الوقت بسرعة البرق.
أشكرك يا الله على حنانك، أرسلت لي هادي وتمسكت أنا به كالغريق الذي يتمسك بلوح الخشب.
وجاءت الممرضة تدعوني لرؤية الطبيب لاستلام نتائج الفحوصات.
أحسست بقدمي مسمرتين في الأرض، ويداي تكادان تتمسكان بهادي الذي همَّ بالذهاب، هل أستنجد به؟ هل أدعوه لانتظاري وأخبره لماذا أنا هنا، ربما سأنهار في الداخل، وأسترجع قوتي وأقول لنفسي ما هذا الضعف الذي سيطر علي؟
ونبهتني الممرضة الى ضرورة الدخول ، اعتذر هادي بكل أدب وأكد علي أنه بانتظار زيارتي.
نظرت الى الممرضة نظرات تحمل معانٍ ملؤها الخوف والرهبة والقلق، وفهمتني، ربتت على كتفي ودلتني على الغرفة التي يجب أن أقصدها.
أحسست بالاستسلام، كل دقائق الانتظار الطويلة على الكراسي لا تعادل مطلقاً تلك الخطوات باتجاه غرفة الطبيب، حسبتها طريق لا تنتهي، وخطوات لا عدَّ لها.

جلست على الكرسي المقابل للطبيب، لا أذكر كم طال حديثه، لا أذكر إن أجبته أو سهوت عنه، لا أذكر أبداً هل انتهى حديثه أم أنا انتهيت؟

هناء كرم
أيار 2006